سلطة القراءة واستراتيجية الترجمة/
وتعدد مقصديات النص

رسالة النعمان إلى كسرى نموذجا

حفيظة روابنية
جامعة باجي مختار/ عنابة

يشكل التخاطب والسياق أهم مبحثين في الدراسات التداوليـــة التي تعـــد بدورها أحد أهم المكونات الأساسية لأية نظرية سيميائية ، تتركز مهمتها في دراسة العلاقات بين الرموز والعلامات والمستعملين لها[1] ، وتنطلق التداولية من التلفظ؛ الذي يعد من خصوصيات اللسانيات الفرنسية في مقابل أفعال الكلام في التداولية الأنجلو-سكسونية ؛ لتمارس دورها في دراسة التخاطب كفعل تواصلي وعلاقته ببنية الخطاب وتأويله ومحاولة رصد الاختلافات الثقافية في كل تفاعل كلامي، وهذا يضطرنا إلى تحليل خصائص التلفظ ، وعلاقته ببنية الخطاب ؛ وذلك أننا عندما نتحدث نتعجب ، ونستفهم ، ونخضع خطابنا لعلامات الوقف ، أو نزيد من نوع من الكلمات التي تحمل آثار التلفظ والتخاطب ، وفي بعض الأحيان نختصر كلامنا وننتظر المرور من بعد لآخر ، وأن كل ذلك يضطرنا أثناء عملية التحليل إلى الإجابة عما هو مضمر في التلفظ والملفوظ ؛ وفي كل مرة يتغير الوضع عندما تتغير كفاءة التأويل[2] ، وبالتالي يصبح بإمكاننا المرور من

قصدية إلى أخرى ، ويكون بإمكان الخطاب أن يتجاوز ذاته كأفعال كلامية أو حدث كلما أضيفت إليه دلالات جديدة أو قامت حوله خطابات أخرى واصفة ومؤولة.

ولاستثمار هذه المقولات اخترت ملفوظا شفويا جاهليا ، اكتسب خاصيته التداولية انطلاقا من مروره من قصدية إلى أخرى ، يتمثل هذا الملفوظ في جملة النعمان بن المنذر " أليس في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته " ، وقد هيمنت عليها آثار التلفظ التي تحيل على ذات المتحدث ، وتعبر عن إحساسه وموقفه كذات تحيل على ذاتها داخل خطابها ؛ أكثر مما تتوجه إلى أي متلق. ولكن المقام الذي ارتبطت به أسهم في تحويلها إلى خطاب مباشر، وأكسبها مقصدية أخرى هي مقصدية المتلقي .

سجل النص :

نؤسس لمجموع السرود التاريخية التي أحاطت بهذا الملفوظ الشفوي، وأسهمت في تشكيل بنيته الجملية انطلاقا من الموقف الذي هيأ لميلاد هذه الجملة، وهو مجلس النعمان بن المنذر ؛ وقد ضم أشراف القوم ، وذلك حين جاءه رسول كسرى بمعية ابن عدي بن زيد الشاعر المغدور به ؛ برسالة يطلب منه تنفيذها وفحواها : أن كسرى " قد احتاج إلى نساء لنفسه وولده وأهل بيته وأراد كرامتك بصهره فبعث إليك ...وهذه صفتهن قد جئناك بها "[3] . وكانت الصفة أن المنذر الأكبر أهدى أنوشروان جارية كان أصابها في غارة " فكتب إلى أنوشروان بصفتها وقال : إني قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق ،نقية اللون والثغر، بيضاء ، قمراء ، وطفاء ، كحلاء ، دعجاء ، حوراء ، عيناء ، قنواء شماء ، برجاء ، زجاء ..." إلى آخر هذه الأوصاف . وكان زيد بن عدي بن زيد الشاعر هو الذي قرأ هذه الصفات على النعمان بن المنذر " فشقت عليه ، وقال لزيد والرسول يسمع : أما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته فقال

الرســـول لزيد بالفارسية : ما المها والعين ؟ فقال له بالفارسية :كاوان أي البقر، فامسك الرسول ..."[4]، ثم إن النعمان كتب إلى كسرى بالرد جاء فيه "إن الذي طلب الملك ليس عندي ، " وعندما عاد الرسول سلم الرد للملك وأخبره بالباقي (وهو التعليق السابق الذي فـــاه بـــه الـــنعمان أمام رسولي كسرى) قائلا أن النعمان يقول للملك: " أما كان في بقر الســـواد وفـــارس ؛ مـــا يكفيه حتى يطلب ما عندنا "[5] ، وعلى عادة الملوك في تصنع الـــرزانة والحلم رد كسرى :" رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ، ثم صار أمره إلى التباب "[6] .

لـــم تكـــن هذه الوقفات المستفزة هي بداية الأحداث ..ولا نهايتها لأن جملة النعمان استدعت تاريخا سابقا ولاحقا وحافلا ؛ يمكن اختزاله في محورين هما :

- ما قبل الجملة ، ويشتمل على الأحداث التالية :-

1- اســـتدعاء صحيفة المنذر الأكبر إلى أنو شروان ،وتتضمن أوصافا للمرأة استقى منها كسرى -الحفيد- الأوصاف التي وردت في رسالته إلى النعمان .

2- فضـــل عـــدي بـــن زيد - والد زيد -على النعمان بن المنذر في اعتلائه عرش الحيرة، وما رافق ذلك من جهد وسعي لتثبيته واستتباب الأمر له .

3- مكافأة النعمان له بسجنه ثم قتله .

4- ظهور زيد بن عدي بن زيد ليثار من قاتل والده.

2- ما بعد الجملة ، ويتلخص في :

1- هروب النعمان إلى الجزيرة العربية خوفا من بطش كسرى .

2- تخلي العرب عن حمايته ومناصرته .

3- عودة النعمان إلى كسرى معتذرا .

4- سجن كسرى للنعمان وموته في سجنه (وهو نفس مصير عدي بن زيد).

5- قـيام يـوم ذي قار الذي يعد -في أحد أسبابه- ثأرا للنعمان من كسرى ،وكان للعرب على الفرس [7] .

إن قراءتـنا للأحداث ترتكز ولا شك " على الناتئ لا على الممتد والمنتشر"[8] ، لأن هـذا الناتـئ لـه وظيفة استفزازية، يجعل الصورة أو المعنى يستقر ولا يبرح إلا بعد مساءلته ومحاورته .

تكمـن بلاغـة المفاجأة هنا في فعل الخرق الذي أحدثته الترجمة، وهو يؤسس لبناء تصـور ومفهـوم يتجلى ضمن سياقات اجتماعية وتاريخية وثقافية ، مهاجرة أحيانا في الماضي ، وذات حمولة إيحائية ، وأعراف أدبية ، لا تقرأ إلا في سياقها .

وقد اكتسبت (جملة النعمان) هذا الامتلاء ، على الرغم من أنها ليست جملة باذخة ، ولا تعد بشيء خارق في ذاتها ، أو في بلاغتها ، أو أنها أطلقت لغاية جمالية أو شعرية، أو صدرت عن شاعر يستند إلى ثقافة بلاغية ؛ تسيج خطابه بالمعتم والمتواري المدهش أو المسكوت عنه .

فالجملـة أولا :لـم تشذ في معناها عن تقاليد العرب في أدبهم ، وخاصة في وصف المرأة بأحسن الأوصاف ، وقد وردت في أشعار الشعراء الجاهليين بهذا المعنى ، وذلك حين شبهوا جمال عيون المرأة واكتحالها وحورها وتناسق أعضائها بعيون المها والعين، يقول زهير بن أبي سلمى :

وأَذْكُرُ سلمَى في الزمانِ الذي مضى *** كعيناءَ ترتادُ الأَسِرَّةَ عَوْهَجُ [9]

ويقول الأعشى :-

مُبَتَّلَةِ الحَلْقِ مِثْل المَهَـــــا ةِ لم تَرَ شَمسًا ولا زَمْهَرِيرَا [10]

ويقول امرؤ القيس :

نظرتْ إليْكَ بعيْنِ جازئةٍ *** حوراءَ عانيةٍ على طِفْلِ [11]

كمـــا وردت اللفظتان (المها والعين) في صحيفة المنذر الأكبر التي أرسلها إلى جد أنـــو شروان كما أسلفنا ، وكان قد أمر " بإثباتها في دواوينه فلم يزالوا يتوارثونها ، حتى أفضى ذلك إلى كسرى بن هرمز "[12] ، وهنا نطرح استفهاما وهو كيف فهمت أوصاف صـــحيفة المـــنذر الأكـــبر –وقد سبقت في ظهورها جملة النعمان – وكانت أكثر غرابة وحوشية ؟ولم تفهم تلك الأوصاف في الجملة المذكورة !.

أمـــا الملاحظـــة التي تفرض نفسها في الجملة فهي ، الميل إلى توظيف البلاغة من خـــلال تشبيه النساء بالبقر في سمنتها ورجرجتها وحسنها من جهة ،وفي اكتحال عينها وســـعتها وحورها من جهة ثانية ، يستوي في هذا الاستعمال الشعراء والملوك ؛ ذلك أن اللغة العادية عامة وباردة بخلاف اللغة المجازية فهي دافئة ومتدفقة ومعبرة عن الشعور [13] ، وهذا ما يجعل الجملة تنفتح على دولة الشعر الرحبة بنصوصها الشعرية والنثرية، ولا تفهم إلا من خلال أبعادها الانزياحية والتصويرية ،كما أننا نجد جملة النعمان تصور طبـــيعة العرب وميلهم في استعمال اللغة إلى الإيجاز وقديما قالوا " البلاغة الإيجاز" كما تصور _ أيضا _ ابتعاد الملوك عن رطانة العامة .

من سلطة النص إلى سلطة القراءة

1- تـــندرج جملـــة النعمان " أليس في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجـــته " ضمن ثقافة شفوية ،تتعامل مع الحواس والوجدان تعاملا انفعاليا في كثير من الأحيان ، وهذا ما حدد هوية الخطاب العربي في العصر الجاهلي ، وميزه عن غيره من خطابات العصور اللاحقة ، مفرزا جملة من المعايير حددت الشعرية العربية فيما بعد .

كانت هذه الجملة ردا غير رسمي على طلب كسرى ، عبر فيها بصدق عن الشعور الذي خالجه ساعة اطلاعه عليه ، واستجابة طبيعية لما تقتضيه العاطفة حين تبلغ أقصى انفعالهـا ، فجـاء محملا بالاستياء والغضب والرفض ؛ ولكن انفعاله وصوته لم يكونا مكتوميـن بل جاءا بنبرة عالية تجاوزت حدود الانفعال الذاتي إلى من كأن يحيط به في مجلسه ، وأخص بالذكر عدوه اللدود زيد بن عدي بن زيد ورسول كسرى إليه .

أما الرد الرسمي على الرسالة ، فكان في كتاب هذا نصه " إن الذي طلب الملك ليس عندي"[14] وسلمه للرسول ليوصله إلى كسرى .

إن جملة النعمان ، نص غفل ، وكلمة عابرة يصعب تحديد هويتها الإجناسية ؛ ومنه يصعب الإجراء والآليات التي تمكن من قراءتها ومحاورتها خاصة وإنها تتبني على قدر كبـير مـن البسـاطة البنيوية مما يطوق دينامية القراءة لأن وضوح التجربة- عموما- وبسـاطتها ، تفـرض علـى القارئ تعاملا خاصا ،وتلزمه الوقوف عند حدود التواصل الصـرف ، وهـنا يشح النص وتكف جملة الدوال عن البوح ويكون القارئ " كالشحيح الـذي ضـاع في الترب خاتمه " غير أن النص يسعى -دائما -إلى خلق شكل وتأسيس تأثـير جمالـي خـارج الـبعد التداولي الصرف ، يرتكز في ذلك على " نسيج الكلمات المشـتبكة والمـنظمة بطريقة تفرض معنى متينا وراسخا وقدر الإمكان وحيدا ...وهو مرتـبط تاريخيا بعالم كامل من المؤسسات ... انه المكتوب مشاركا في العقد الاجتماعي "[15].

وبالـنظر إلـى هذا التعريف للنص نكاد نخرج جملة النعمان " أليس في مها السواد وعيـن فارس ..."من كونها نصا ؛ ينطوي على نسيج مكتوب يمنحه الرسوخ والثبات ، فهـو جملـة شفوية كما أسلفنا القول ، تتبعث من أعماق الجاهلية ، تعبر عن وعي بما

يتمتع به التعبير من قيمة اختزالية تناسب لغة الشعر، كما تعبر عن ثقافة تجمع بين الشاعر والملك والراوي .

كما أن الجملة كان يمكن أن تكون خبرا ، وتحمل بعض خصائصه المتمثلة في نقل الوقائع والأحداث بصرف النظر عن الصياغة الفنية ، أو رسالة عادية تحول " عدم الإخبار إلى إخبار تام ، تتجانس عن طريقه الصور الإدراكية لدى الباث بالصور الإدراكية لدى المتلقي ، وذلك ضمن سياق واقعي وفعلي تتمحي الرسالة بمجرد غيابه ..."[16] ، غير أن جملة النعمان انتصبت أمام المتلقي ،ومارست حضورا مثيرا أدى إلى ردود أفعال تداولية ، تجعل الجملة تتجاوز كونها خبرا تواصليا ؛ يستهدف معنى محددا إلى جملة متميزة مصطبغة بأسلوب خاص كان عاملا على توجيه القراءة وإحداث ردود فعل خارج مضمون الرسالة .

لقد شكلت الجملة خرقا للمتوقع ، وإثارة للعواطف على بساطة بنيتها – كما أسلفنا– ، وذلك عن طريق ارتكازها على النموذج البلاغي الذي يتجاوز اللغة الطبيعية إلى وضع استعاري تخييلي ، وهو ما درج عليه العرب في أساليبهم وكلامهم ، وتفاعلوا معه بشكل عفوي ، عزز لدينا الاعتقاد بان الجملة قابلة للاستقبال على الوجه الذي رويت به، خاصة وأننا نعلم بان " الاستعارة فطرية في لغة الإنسان ، يتوسلها من تعلم اللغة وهو صغير ..."[17] ، تقوم بوظيفة الإبانة وتقريب المعنى ، كما تيسر التخاطب العادي واليومي بين الناس [18] فهي " وسيط مهم بين الذهن البشري وما يحيط به من كائنات حية وغير حية ، بواسطتها يفسر الملتبس والمبهم ، وتتجاوز كثير من العراقيل التواصلية "[19] مما يؤدي بنا إلى القول بان الثقافة الشفوية الجاهلية ، شكلت الصورة

فـيها ضرورة ملحة ، ووضعا قائما يتجاوز مجرد تقريب الأشياء للمتلقي إلى قيام جهاز بلاغي جمالي ، يسعى إلى الإيحاء والمثال والفاتن والمحير .

أهـم مـا نصـادفه في الجملة كشكل ، الإيجاز وما يطرحه من اختزال كمي على مستوى الألفاظ مما يضاعف من طاقة البحث عند القراءة والتمييـز بيـن الألفاظ والأصوات التي "لا ثقل لها في تحديد الدلالة مهما كانت مراتبها في الكلمات"[20]، وبيـن الألفـاظ التي تنزاح عن معناها المعجمي إلى معنى مجازي يسهم في بناء السياق، وأقصد بذلك استعمال النعمان في جملته للفظتي (المها والعين) المنزاحتين عن معـناهما المعجمـي إلـى المعنى المجازي أو الشعري ، فيعلي ذلك من نبضهما داخل السـياق ، وتعلـنان عـن وجودهما وخروجهما عن المألوف ، وهو بهذا يريد أن يمنح المتلقي فضاء ممتلئا بالقيم والعادات والعلاقات والعواطف وكل سجلات القول المعروفة فـي العصـر الجاهلـي . بل إن المتلقي الذي يقصده النعمان ينتمي لا محالة إلى نفس الإطـار الثقافي والاجتماعي ، ويدرك تماما الجماليات التي يقوم عليها الخطاب العربي فـي الفترة الجاهلية ، ولهذا لا نظن أنها موجهة لكسرى أو لمتلقين غير عرب أو حتى لمتلقيـن عـرب ، لهذا جاءت باذخة و تحمل الخصوصية الثقافية العربية إذ " لا وجود لـنص بـدون إحالة ما ..."[21] والجملة من هذا المنظور تحتاج إلى تكملة وعودة إلى ذاكرتها التاريخية والثقافية المبنية على المجاز والإيجاز .

غـير أن الصـيغة التـي قدمتها الجملة للتواصل مع المتلقي تلفت النظر إلى تقاليد العـرب فـي معالجة موضوع المرأة ، حيث درج العرب في حياتهم العامة على اختيار أسـماء لمسـميات ترتبط بحياتهم وقيمهم وأعرافهم ومعتقداتهم ، فأطلقوا ما رأوه مناسبا على أبنائهم وعبيدهم ونسائهم مثل صخر وعقاب لأبنائهم ، ومرزوق ومسعود لعبيدهم ،

وأسـماء وسلمى وهريرة لنسائهم ، ونظرا للدور الكبير الذي تلعبه الألفاظ والكلمات في كل خطاب سواء أكان عاما أو خطابا أدبيا فان مستخدم اللغة يدرك أن اللغة لا توجد إلا مـن خلال ألفاظها ، و" أن هناك دوما وراء ستار المعنى الأول جملة قيم ترتبط باللفظة وتميزها ومدلولاتها الملتحمة بالضرورة مع الجوهر الجماعي في المجتمع "[22]، كما أنه – أي مسـتخدم هـذه اللغة – يدرك أن ثمة قواعد وأعرافا تخضع لها الكلمات ، وهذه الكلمـات تصـبح لها خصائص سياقية لا تفهم إلا في إطارها ، ويتحدد استعمالها ضمن هـذا السـياق لأن الكلمة خارج سياقها لا تعطي المعنى الشعري ولا تنجز أي مشروع دلالـي ، إذ " اللفظة تستمد حياتها من السياق الذي تقع فيه ، وأنها لا تولّد أي أثر يذكر إذا هي لم تتصل بغيرها من الألفاظ ...ومع ذلك تحتفظ اللفظة دائما بخصائص لا تتوفر لغيرها "[23]

مـن هـذه الزاوية – زاوية التفسير – نلمح الحالات والملابسات التي صدرت عنها جملة النعمان بن المنذر ، ذلك أن التاريخ العربي القديم لم ينبئنا أن العرب كانوا ينادون المـرأة فـي الحـياة العامة (بالمها) أو (العين) ،لأن الكلمتين من أسماء البقر الوحشي وتسـتعاران لوصف جمال عيون المرأة واكتحالها وحورها وتناسق أعضائها ، بخاصة فـي النصـوص ذات الـنزعة الوصفية . وعلى الرغم من شيوع استعمال تشبيه المرأة (بالمهـا) أو (العيـن) وتداولـه ، تظل مرتبطة في كل الحالات بالمخزون الثقافي الذي يصـدر عـنه الشـعر الجاهلـي والكلام الخاص عموما . وهكذا اكتسبت الكلمتان هذا الاسـتعمال الشعري – إن صح القول– حتى كاد أن يغدو معنى أصيلا وليس مجازيا . كمـا كانـت لفظتا (المها والعين) مثيرتين كعلامتين لتحريك البعد السوسيو–ثقافي الذي عـبر عنه الغدامي بقوله " أن الكلمة استحضرت في نفوسنا سلسلة من التصورات التي

شـــاركت في صنعها عوامل نفسية واجتماعية وثقافية لا حصر لها ، والأعراف الأدبية والاجتماعـــية تشـــترك فـــي إيجاد هذه العلاقة بين الكلمة ومتصورها ..."[24] ، فيفيض المعنى عن اللفظة ويتعذر أحيانا الإمساك به لأن اللفظة قد تعمد إلى تضليلنا وتحيل على ســـياقات لها سمات خاصة ، تتعلق بقيود الصياغة والتزام المعايير ، وبمعنى آخر قد لا تكـــون هـــي نفســـها المعايير والسمات التي تتقصدها اللفظة ، أي المرأة الحاضرة في (المها والعين) هي المرأة التي تعيش في الوعي وتملك الإحساس فيكسبها ذلك اختلافا عـــن المـــرأة الأخرى التي تعيش في الواقع . هذا النوع من النساء يوجد في النصوص والخطابات الخاصة ويمتد في المكان والزمان والخطاب ، وتدخل الكلمة المعجم الشعري وتتـــنمذج فيـــتكرر ظهورها في مختلف النصوص وتتناص مع كل الخطابات، دون أن تمـــارس الإقصاء لمعنى من معانيها تاركة مجال التحديد للسياق الذي ترد فيه، وللذاكرة التـــي لا فكـــاك للإنســـان منها ، باعتبار النصوص الجاهلية خطابات شفوية لها معايير خاصة لا تفهم إلا ضمن مساراتها الجمالية والشعرية .

يضـــاف إلى هذا أن بناء الجملة على صيغة الاستفهام التعجبي والإنكاري (أليس في مهـــا الســـواد وعين فارس ....) من جهة واعتمادها على الألفاظ غير المألوفة –بالنسبة لرســـول كســـرى الفارســـي– من جهة ثانية ، هو الذي ضمن نجاح الإيحاء بأن طلب كســـرى مرفوض وأن العرب لا تتاجر بسعادتها وجنتها الأرضية والمتمثلة في المرأة ، لأن المـــرأة عـــند العـــرب الجاهليين لا تمثل العرض بقدر ما تمثل الحياة الدمثة وسط غلاظـــة البيـــئة وجهامـــتها ، وهي حياة تستحق الدفاع عنها . ولهذا خص لها الجاهلي نصـــيب الأســـد مـــن حياته وخطاباته ، وكان ذكرها لا يخرج عن هذا المفهوم الثقافي والاجتماعـــي والشـــعري ، وقد جاءت جملة النعمان معبرة عن هذا المفهوم مستثيرة ما

يسمى " بالذخيرة المشتركة "[25] بين الباث وبين المتلقي ، على افتراض أن المتلقي ينتمي إلى نفس المجال الثقافي الذي ينتمي إليه الباث ، وهذا ما يجعله ينصرف عن استثمار نظرية التكييف التي تحاول أن تطرح إمكانية تكييف المرسل لخطابه بحسب المتلقي [26]، ذلك أن النعمان – في هذه الجملة – لا يحرص على تحقيق الهدف من التكييف وهو تفاعل المتلقي واستمالته وكسب رضاه بقدر ما تعبر الجملة عن استنكار الطلب ورفضه ضمنيا – كما أسلفنا القول – .

إن الموقف يعبر عن الحرية التي يشعر بها النعمان خارج قيود التحالف والمعاهدات التاريخية بين المناذرة والاكاسرة ، هذه الحرية تطرح سلطة الذات على المستوى السياسي خارج المواثيق والعهود من جهة ، والتعالي اللغوي الذي يمثل بشكل من الأشكال الطبقية اللغوية التي تنزع إلى الفوقية والشعرية والابتعاد عن السوقية والرطانة من جهة ثانية ، فقد صدر عن ثقافة شاعرة وعروبة تحسن تخير ألفاظها ، تتبوأ فيها الكلمة والعبارة مكانة رفيعة،" فالعبارة البليغة تفعل بالعربي أشد مما يفعله الرصاص"[27]، ولا تنتهي مكانتها وتأثيرها بانتهاء الموقف الذي قيلت فيه بل هو ممتد في كل الأزمان ، وقديما قال الشاعر دعبل الخزاعي:

إني إذا قلت شعرا مات قائله *** ومن يقال له والبيت لم يمت

ومما تم تحليله سابقا يتبين لنا إلى أي حد كان خطاب النعمان قويا في بنيته التي لم تكتف بالآلية والحرفية في تأدية المعاني – رغم بساطة هذه البنية كما ذكرنا سالفا– وفي إيجازه ومجازه هذه القوة منحته سلطة ، والسلطة وجود وبقاء يستوجب الدفاع عنهما ، لهذا كان النعمان يدافع عن سلطته وهي ليست سلطة سياسية فحسب ، ولكنها وجودية وثقافية / سلطة الخطاب خارج خطاب السلطة، لأنه قادر على حماية نفسه ، وقد يكون

مـــن بـــاب الصـــدفة أن تجتمع سلطة السياسة والقول في النعمان ليزداد الخطاب قوة ، فيتماهى خطاب السلطة المقيد والمحاط بطقوس الكلام والمجاملات بسلطة الخطاب التي يحاول أن ينفلت منها .

2- إن القـــراءة " جـــزء من النص " لأنها هي التي تحدد غناه وتحقق وجوده بما تســـتعمله مـــن آليات تكشف عن قصديته ، ولهذا يتعدد النص بتعدد القراءات ، ذلك أن القـــراءة " تجربة شخصية "[28] تخضع لثقافة القارئ من جهة، " فهو ثالث الأثافي التي ترتكـــز عليها عملية التواصل "[29] ،وللإجراء الذي يمكنه من التعامل مع النص تعاملا يتـــيح قدرا كبيرا ليس من الفهم والتواصل فقط وإنما من التحقق والوجود،لأن النص كما يقـــول تودوروف" لا يمكن أن يقول حقيقته الكاملة "[30] وهكذا تتوطد العلاقة بين القارئ والـــنص فتـــبدو فـــي شكل حوار ممتد لا ينقطع خيطه ، يقوى ويشتد كلما كان القارئ متميزا ، وبالتالي يستمد النص قوته مما تمنحه القراءة من إمكانات وتستكشفه من عوالم أثـــناء عملية القراءة ، فهي – أي القراءة – عند الغدامي " عملية دخول في السياق وهي محاولـــة تصنيف النص في سياق يشمله مع أمثاله من النصوص ..."[31] بغية الوصول إلى مقاصد النص وهي بطريقة ما مقاصد الباث أو هي المسكوت عنه وكل ما يتجاوزه ليسهم في بنية تحقق معناه ، وهذا يجعل القارئ منتجا للنص وفاعلا فيه ، لأن كل قارئ يحـــاول أن يســـلط فكره ويسقط رؤيته ومقاصده على النص حتى يبرز دوره الذي لا يـــتوقف عند حدود التلقي المباشر للنص والاكتفاء بمقصدية الباث ، حيث تدفع به الطاقة الإيحائـــية التي يتوفر عليها النص إلى الانتقال من دوال معينة إلى مدلولات قد لا يحيل علـــيها الـــنص بقـــدر ما يثيرها أو يوحي بها كإمكانية من بين الإمكانيات المتعددة التي تجعـــل الـــنص أثناء فعل القراءة منفتحا على كل ما هو غير متوقع أو مفكر فيه ، وفي

الأحـــوال العاديـــة فإن القارئ يعيد بناء النص وفق ثقافته واستعداداته النفسية والعقلية ووفـــق مقاصـــده هو التي قد لا تكون هي نفسها مقاصد الباث أو النص ، لهذا فالقارئ يثبـــت وجود النص ويحدد قيمته ،" فلا نص خارج المتلقي والمتلقي ليس فكرة مثالية أو ذاتـــا خيالـــية جوفاء ، بل هو كائن متحقق في الزمن والفضاء متبدل ومتغير في شروط تلقـــيه ، لا يســـتقر على موقف ثابت بل يستجيب إلى حال متقلب "[32] ، كما أن القارئ مطالـــب بـــتأويل النص والحوار معه ، الأمر الذي خلق نظرية للتلقي[33] تهتم بجماليات تلقيه واستقباله وقراءته .

ولعل التجربة التي تطرحها جملة النعمان " أليس في مها السواد وعين فارس ..."لا تخـــرج عن كونها قراءة متجاوزة لنصها الشفوي ، تتضمن أفعالا وردود أفعال حظيت بكثافة قد لا تتناسب مع بنيتها الشكلية .

وقد سبق القول إلى أن جملة النعمان التي يتعامل معها المتلقي هي خطاب شفوي عاطفي ينفتح على احتمالات التصرف والتحريف ، ويخضع للوظيفة التداولية للتخاطب، ولهذا فنحن أمام نوع خاص من الخطابات ومن التلقي لا يخضع لجماليات الشعرية الشفوية كالقصيدة أو الخطبة أو المثل أو الوصية أو الحكمة ، ولا يحرص على أن يقيم استراتيجية نصية مشتركة بين الباث والمتلقي بمعنى آخر أنه ليس نصا خارقا في لغته أو جمالياته ، وإنما هو جملة تخاطبية اكتسبت وجودها وديناميتها أولا من الحمولة التاريخية والاجتماعية والثقافية وثانيا من خصوصية تداولية التلقي التي منحت لهذه الجملة وجودا متحققا على مد ى التاريخ ، مع أن الخطاب على الرغم من أن فعل التلفظ منطلقا من الذات وموجها إليها ومنتجا لملفوظ غير مباشر يندرج ضمن التعليقات والانطباعات الذاتية إلا أن المتلقي -زيد بن عدي – قام بإعادة استثمار هذه الجملة أثناء

الترجمة واستعمالها وفق غاية ومقصدية تمنحها دلالة جديدة بعيدة كل البعد عن الدلالة التي صدرت عنها ، معبرة عن وقع سيكولوجي حاد جعل النعمان لا يراعي المقام ولا يحسب حسابا للمتلقي الذي كان يتربص به ويحصي عليه سقطاته وما يمكن أن يدينه به عند كسرى .

وممـــا تجـــدر الإشارة إليه أن قراءتنا ستكون حول قراءة زيد لخطاب النعمان، أي حـــول ترجمة زيد لجملة النعمان وعلاقة هذه الجملة المتعالية بالوظيفة التواصلية لمثل هـــذه الخطابـــات المجازية التي لا تراهن على المتلقي بقدر ما تعلي من قيمة التلفظ بما تضـــفيه علـــيه مـــن شاعرية ، يصبح معها خطاب البوح فضاء رحبا يختلف في هويته وثقافته وحمولته الدلالية عن أي خطاب تواصلي ، كونه خطابا منفلتا من أطر الخطابات الرســـمية التـــي تقـــال عادة في المحافل الشعرية وبلاطات الأمراء ، تحفها المجاملات وتخـــير الأشـــكال اللائقـــة للكـــلام ، فهو جملة أفرغ فيها النعمان كل مشاعر الغضب والاســـتياء عند سماع طلب كسرى المفاجئ والمتمثل في أن يرسل النعمان من بناته أو أخواته من تنطبق عليهن الصفات التي جاءت في الصحيفة أو الرسالة ولا مانع عنده من أن يســـمعها غـــيره ممـــن يشعرون مثله بصعوبة الاستجابة لهذا الطلب وما أكثرهم في مجلسه .

ولا شـــك أن الجملة تلقاها المتلقون بأشكال مختلفة تبعا لاختلاف مقاماتهم وأنماطهم مـــن أمثال حاشية الملك ، وتضم أصدقاءه وأعداءه الشامتين وكذا رسل كسرى ومن في الموكـــب والـــبلاط عربيا كان أم فارسيا ، ويمكن أن نطرح احتمالا آخر لتلقي رسالة كسرى إلى النعمان يتمثل في قتل الرسول مثلا أو ضربه وسجنه أو إغلاظ القول له ...

نمـــيز من بين أهم المتلقين زيد بن عدي بن زيد ثم رسول كسرى ثم كسرى كمتلق غير مباشر كان له دور لا ينكر في مشروع زيد بن عدي .

ويظهر زيد بن عدي هنا كمتلق متميز ومحايث ، يرتبط ببنية الملفوظ وبإعادة بناء معناه وذلك من حيث:

ا- العلاقة التي تربطه باللغتين العربية والفارسية (كمترجم).

ب- العلاقـــة التـــي تربطه بالملكين فهي تقوم على طرفي نقيض من حيث التواصل والود والتجاوب .

إن هذه الجملة التي صدرت عن النعمان -في حقيقتها - لا تبحث عن قارئ نموذجي يـــتوفر علـــى آليات وشروط لقراءتها نظرا لاستغلاقها وإغراقها في الإيحائية ، و إنما المتلقي - هنا - هو المعني بالبحث عن نص الجملة أو الخطاب وليس العكس ، والدلالة هـــي هدفه وهذا ما جعل الخاصية الحوارية التي ترد عادة مصاحبة لأي تخاطب مفقودة في هذا الخطاب وذلك لاختصار المتلقي (زيد بن عدي) للوظيفة الشعرية الإيحائية لهذه الجملـــة واقتصـــاره على الوظيفة اللسانية التي حولتها إلى خطاب لساني مغلق ووحيد الدلالـــة وهـــو مـــا تقتضـــيه وظيفة المترجم الخائن. وقد قدم زيد نفسه كمترجم مكتفيا بالـــترجمة الآلية الحرفية لكلمتي (المها والعين) الواردتين في نص خطاب النعمان بن المـــنذر متغاضيا عن الترجمة التي "تسعى إلى إيجاد معادل موضوعي يرتقي بالأصل إلى أصول أخرى في آداب التلقي "[34] .فكانت وظيفة الترجمة - هنا - هي التعتيم على المعـــنى المجـــازي للكلمتيـــن وعدم المحافظة على التقاليد والجماليات التي تستعمل فيها الكلمتان في اللغة العربية، لأن الترجمة كما يقول احمد المريني " عملية علمية وتذوقية وإنسانية"[35] . هذا الاتجاه الذي نزعت إليه ترجمة زيد يوحي بعلاقة التناقض التي تربط

بيــن الــباث والمتلقي ، تجسدت في توجيهه للخطاب توجيها ينحرف عن مقصدية الباث ولا يخدم هدفه.

والمتلقي (ونقصد به زيد بن عدي) لا يهمه نجاح النعمان ووصول خطابه بالدلالة التــي يقصدها ، ولا تهمه الوظيفة الإيحائية المتعالية التي أنجزها هذا الخطاب وإنما ما يهمــه هــو أن يفشــل النعمان وأن يكون فشله على يده ، لهذا كان فاعلا في الخطاب وصــاحب الخطــاب عــند كسرى ، كما كان صاحب الخطاب فاعلا في حياته من قبل (تحقــيق ثــأر).وهــذا لن يتأتى إلا بخطاب مواز لخطاب النعمان ومشوه له مع سبق الإصــرار ، ولذلــك بقــدر ما حرص النعمان على عدم تكييف خطابه بحسب متلقيه – ومــنهم من كان فارسيا لا يحسن اللغة العربية الطبيعية بله المجازية – بقدر ما حرص ابــن عدي على تكييفه وتقديم معانيه بترجمة آلية حرفية ، أحدثت ثغرات في النص وفي تلقــيه مــن طرف رسول كسرى وكسرى بعد. أحدث ذلك شرخا واسعا في العلاقة بين الملكيــن وأســاء إلى النص الأصلي ، لأن الترجمة " أداة ذات حدين"[36] يحسن التنبه والدقــة عند امتطاء صهوتها ، لأنه عبرها يتم "الانتقال من نظام سيميائي إلى نظام آخر أكثر مما هي نقل شيء من لغة إلى أخرى "[37] .

لقــد تــم تجاهل العالم السوسيو–سيكولوجي للنعمان والسوسيو–ثقافي للخطاب الذي وردت فيه اللفظتان أثناء ترجمتهما وأسقطت حمولة ثقافية كانت الكلمتان (المها والعين) حبلييــن بها ، وهذا التجاهل متعمد أريد من ورائه إدخال خطاب النعمان في سياق جديد موجه يهدف إلى تحقيق تيمة الانتقام التي هيمنت علي تصرفات زيد ووجهت دهاءه إلى الــتربص بالــنعمان لحين تحقيق الثأر ، وكان المساعد له في ذلك الترجمة التي شوهت مقصــد الــنص وقدمت مقاصد أخرى خاصة بمشروع زيد بن عدي الانتقامي ، ويظهر

الحرص على تنفيذه كاملا من خلال تتبع إنجازه منذ أن وجه أنظار كسرى إلى نساء النعمان ، ثم حبكه عند مرافقته للرسول وانتهاء بالتمكن من النعمان ؛ يقول زيد للنعمان وقد التقى به في محنته على قنطرة ساباط " انج نعيم إن استطعت النجاء ...فقد والله أخيت لك أخية لا يقطعها المهر الأرن"[38] .

وبهذا كانت الترجمة – إذا– عند زيد بن عدي مبنية على استراتيجية إخفاء معنى النص بمكر ودهاء أي استبدال المعنى المجازي الدارج عند العرب حين يشبهون المرأة بـ(المها والعين) في جمال العيون والجسد بالمعنى المعجمي للكلمتين وهو (كاوان) وتعني (البقر) بالفارسية .

تطرح أمانة زيد المترجم في مقابل خيانة الترجمة أي أن أمانة زيد هي بشكل آخر خيانة للسياق المجازي العربي وخيانة للنعمان بن المنذر ، وكان أوصاه بأن يعذره عند الملك (كسرى) [39] ، وخيانة للقيم الأدبية التي ينتمي إليها إضافة إلى خيانة الترجمة كعلم يرتكز على نقل ثقافة بكل ثقلها الحضاري إلى ثقافة أخرى تختلف عنها في الفكر والرؤية والحضارة والوسائل ....الخ ، فاجتمعت الخيانات حول نص النعمان كل يخون على طريقته حتى النعمان نفسه فهو يدافع من ناحية عن نسائه العربيات وينتهك من ناحية أخرى نساء عربيات أخريات في خطابه حين يقول " أليس في مها السواد ..." والسواد تعني " عوام الناس أو ما حوالي الكوفة من قرى"[40] سيرا على سنة جده (المنذر الأكبر) الذي أهدى إلى أنو شروان جارية[41] عربية كان أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني ..."[42] وكسرى يخون النعمان بعد أن يعطيه الأمان ويستقدمه إليه يقوم بسجنه أو قتله على اختلاف الروايات . فالنعمان في خطابه لا يدافع عن المرأة ولا عن كرامتها ولكنه يدافع عما يخصه وما يدخل ضمن ممتلكاته ،

والمرأة في قصره تخصه وحده ومن طبيعة العرب ألا يتنازلوا عن ممتلكاتهم بسهولة ، كما أن زيدا يفعل الشيء نفسه حين يضحي بنساء عربيات – نساء النعمان وبينه وبينهن قـرابة وصلة رحم– في سبيل الانتقام والدفاع عن كرامته وكرامة والده الذي مات غدرا بـيد الـنعمان ، وقد أتم زيد مشروعه الانتقامي الذي خطط له على أكمل وجه نستوحي ذلـك مـن رد كسرى على ما سمعه من رسوله القادم من بلاط النعمان وأمن عليه زيد كشـاهد وأضـاف "قد كنت أخبرتك بضنتهم بنسائهم على غيرهم وأن ذلك من شقائهم واختـيارهم الجوع والعري على الشبع والرياش ..."[43] يقول كسرى :"رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم صار أمره إلى التباب "[44] .

أمـا المتلقـي الثانـي –وهـو رسول كسرى الفارسي– فكان جسرا يمر من خلاله الخطـاب مـن الباث عبر المتلقي الأول –زيد– إلى المتلقي غير المباشر وهو–كسرى– ينحصـر دوره في الوساطة التي قام بها ، هذه الوساطة تحولت إلى شهادة ارتكز عليها زيـد وسهلت أمامه إنجاز المشروع الانتقامي الذي كان قد سطره وكيفه بحسب المواقف والظروف .

اتسم دوره بالآلية والانقياد لمخطط زيد حيث لاعبه وامتلكه فكان يملي عليه ما يقوله لكسـرى ومـا عليه أن يفعله ، توصل إلى ذلك عن طريق تبنيه لاستراتيجية تقوم على استمالة الرسول أثناء ذهابهما ورجوعهما وتتمثل في :

– الحفاوة التي عامل بها زيد رسول الملك أثناء الطريق .

– توصيته بأن يصدق كسرى فيما رأى وسمع .

– الحرص على ملازمته وتوجيهه حتى لا يتشتت ما خطط له وبناه.

وانتهى دوره بسرد ما حدث في بلاط النعمان وأوصاه به زيد .

أمـــا كسرى –المتلقي غير المباشر – فقد صوره السرد التاريخي ملكا يطلب النساء الجمـــيلات يمـــلأ بهـــن قصوره ، يقول صاحب الأغاني " وكان لملوك العجم صفة في النســـاء مكـــتوبة عندهم فكانوا يبعثون في تلك الارضين بتلك الصفة فإذا وجدت حملت إلى الملك غير أنهم لم يكونوا يطلبونها في أرض العرب ولا يظنونها عندهم "[45] .

إن الـــذي وجـــه أنظار الملك وفضوله لنساء النعمان هو زيد، يقول زيد لكسرى : " وعـــند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هـــذه الصـــفة "[46] ثم يزيد من اشتعال هذا الفضول بعد أن يطلب كسرى من رسوله أن يذهـــب للـــنعمان بطلـــبه هذا فيبادره :" أيها الملك إن شر شيء في العرب وفي النعمان خاصة أنهم يتكرمون – زعموا في نفوسهم – عن العجم فأنا أكره أن يغيبهم عمن تبعث إلـــيه أو يعرض عليه غيرهن وإن قدمت أنا عليه لم يقدر على ذلك فابعثني وابعث معي رجلا من ثقاتك يفهم العربية حتى أبلغ ما تحبه "[47] .

نلاحظ هنا كيف كان زيد يوجه سير الأحداث عن قرب ضمن استراتيجية تقوم على مـــبدأ (التقية) والحذر ، رصد من خلالها المواقف والأحداث والأقوال ، وكان يقظا لكل المتغـــيرات التي قد تفسد عليه برنامجه الانتقامي وبالتالي مقاصده وقد أدرك أن التمكن من كسرى يعني التمكن من النعمان لذلك بدأ مشروعه مع كسرى الذي كان مجرد وسيط ســـاعده بطـــريقة غير مباشرة على إنجاز ما خطط له وتابعه حتى تحقق واطمأن على نجاحـــه ، وفي مستوى آخر –أي مستوى التداولية الأدبية– كان كسرى ورسوله عوامل مســـاعدة وأدوات مكنـــت القراءة من أن تتفوق وتتحقق كفعل متعدد متغير ومغير أسهم عـــبر كل تلق في خلق خطاب جديد يضاف إلى مجموع الخطابات التي توالدت من رحم

جملـــة النعمان وجعلتها تتضخم وتتوسع بما أنتجته وتنتجه من خطابات تتجاوزها وتحف بها .

هوامـــــــــش:

1- فـــان دايـــك الـــنص والسياق ت. عبد القادر قنيني ،إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء 2000 ص 215 .

2_ 100 Fiches de linguistique , (énonciation).

3- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء ، دار الثقافة بيروت ، مجلد 2 ص 101 .

4- المصدر نفسه ص 101 .

5- المصدر نفسه ص 103 .

6- المصدر نفسه ص 103 .

7-محمد أحمد جاد المولى وغيره ، أيام العرب في الجاهلية ، مطبعة الحلبي ،د ت، ص 6 .

8- حسن نجمي ، شعرية الفضاء ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ط1 2000 ص 108 .

9- ديـــوان زهير ، صنعة ثعلب ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ط1 1982 بيروت ص 236 .

10- ديوان الأعشى ، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ط7 1983 بيروت ص 145 .

11- ديـــوان امـــرئ القـــيس ، تصحيح الشيخ ابن أبي شنب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1974 ص 353 .
12- الأغاني ، مجلد 2 ص 103 .
13- مدحـــت ســـعد محمـــد الجبار ، الصورة الشعرية عند أبى القاسم الشابي ، الدار العربية للكتاب 1984 ص132 .
14- الأغاني ، مجلد 2 ص 103 .
15- عمر أوكان ، النص السلطة ، إفريقيا الشرق ط1 /1991 ص 45 .
16- إدريس بلمليح ، القراءة التفاعلية ، دار توبقال للنشر ، ط1 2000 ص 53 .
17- عـــبد الإلـــه سليم ، بنيات المشابهة في اللغة العربية مقاربة معرفية ، دار توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب ط 1 2001 ص 37 .
18- المرجع السابق ص 115 .
19- المرجع السابق ص 57 .
20- د. حبيـــب مونســـي ، توترات الإبداع الشعري ، دار الغرب للنشر ، وهران ط1 2001-2002 ص 51.
21- بول ريكور ، النص والتأويل ، ترجمة منصف عبد الحق المغرب / العرب والفكر العالمي عدد 3 صيف 1988 ص 38 .
22- د. علـــي نجيب إبراهيم ، جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم ، دمشق ط1 2002 ص 9 .
23- المرجع السابق ص80.

24- عبد الله محمد الغذامي ، الخطيئة والتكفير ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، ط1 1985 ص 126.

25- إدريس بلمليح ، القراءة التفاعلية ، دار توبقال ، الدار البيضاء المغرب ط1 2000 ص 54 عن ايزر l'acte de lecture p 49

26- د. محمد مفتاح ، دينامية النص ص 51 .

27- عبد الله محمد الغذامي ، الخطيئة والتكفير ، ص 144 .

28- المرجع السابق ص 87 .

29- محمد عبد العظيم في ماهية النص الشعري ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط1 1994 ص 167 .

30- علي الطرهوني ، النص المكتوب والنص المقروء ، الحياة الثقافية عدد58 1990 ص 60 .عن تودوروف .

31- عبد الله محمد الغذامي ، الخطيئة والتكفير ص 80 .

32- رضا الأبيض ، سلطة النص الشكلية ، كتابات معاصرة عدد 33 مجلد 9 آذار - نيسان ، بيروت 1998 ص 90 .

33- الحياة الثقافية عدد 58 1990 ص 60 .

34- د. سعيد علوش ، شعرية الترجمات المغربية ، مطبعة الأمنية ، الرباط 1991 ص 16 .

35- المرجع السابق ص 35 .

36- المرجع السابق ص 41 .

37- المرجع السابق ص 31 عن تيزلكاد .

38- الأغاني مجلد2 ص 105 .

39- المصدر السابق ص103 .

40- ابن منظور ، لسان العرب ، مادة سود.

41- الجارية هي الفتية من النساء بينة الجراية (لسان العرب مادة جرا).

42- الأغاني مجلد 2 ص 101 .

43-المصدر السابق ص 103

44- المصدر السابق ص 103

45- المصدر السابق ص 100 .

46- المصدر السابق ص 101 .

47- المصدر السابق ص 101 .